أجرى الحوار: د. وليد حباس

إبادة في غزّة وانهيار أخلاقي في إسرائيل
حوار مع مؤرخ الهولوكوست عاموس غولدبرغ

تقديم

بهذه المقابلة المعمّقة مع الباحث والمؤرخ الإسرائيلي عاموس غولدبرغ (Amos Goldberg)، التي أجراها المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية- مدار،[1] تستأنف مجلة "قضايا إسرائيلية" نهجًا دأبت عليه أعوامًا طويلة منذ تأسيسها مجلةً فصليةً متخصّصة في الشأن الإسرائيلي، وهو نهج محاورة شخصيات إسرائيلية بارزة وناشطة كُلٌّ في تخصّصها ومجالها، السياسي منها والدبلوماسي والأكاديمي والصحافي والأدبي، والتي اتّسم القاسم المشترك لدى معظمها، على وجه العموم، بأنها نشطت أيضًا في الفعل العام والسياسي منه خصوصًا، ليس داخل إطار عملها أو تخصصها فحسب، وإنما أيضًا أوسع من ذلك. بمفهومٍ ما، أدّى قسم ممن تمت محاورتهم دورًا ربما يصحّ توصيفه بأنه "عضوي" في الفعل الثقافي حين قاربوا الحيّز السياسي- الاجتماعي سعيًا للتأثير والتغيير.

وقد امتدت المقابلات وتفرّعت في مناحٍ عدة وعلى مستويات مختلفة، فيها السياسي والثقافي والعسكري، وكلّها معًا داخل سياق التاريخ بأحداثه القاصمة ومحطاته المصيرية التي أفضت إلى الراهن السياسي في وقت كل مقابلة ومقابلة، لكن أيضًا في الوقت الذي نعيشه اليوم.

وبالعودة إليها يمكن ملاحظة أن جميع المقابلات من دون استثناء ذهب المحاوَرون فيها إلى الفترة المؤسِّسة، عام النكبة ١٩٤٨ وما سبقه، أحيانًا كجزء من التاريخ الشخصي لديهم، وأحيانًا أخرى في محاولة استعادتهم للمحرّكات السياسية التي دفعت العقود الماضية في دولة إسرائيل وصولًا إلى اللّحظة الراهنة للمقابلات. وهكذا، بقصد أو بدون قصد، لم تتم محاولات توصيف الحاضر ووضع التصوّرات للمستقبل سوى بالعودة إلى ذلك الماضي المتفاعل بما أفضى إليه في الحاضر.

لعل الغاية الأهم من مثل هذه المقابلات تمثلت في الماضي وتتمثل الآن في استعادة تشخيص بعض النخب الإسرائيلية البارزة لما كان، ولما هو كائن، ولما يمكن أن يكون، وبالأساس في ضوء المستجدّات الملازمة لكل مقابلة وأخرى على حدة، وخاصة المستجدّات المرتبطة بالتحوّلات الجيو سياسية والدراماتيكية التي طرأت على المشهد السياسي العام وعلى أوساط المجتمع اليهودي في إسرائيل، التي أثّرت من دون شك في الصيرورة الحالية لإسرائيل من خلال ارتباطها العضوي أيضًا بالمنشأ والأصل المشدود إلى الأفكار الصهيونية ولا سيما حيال الفلسطينيين ووطنهم وحقوقهم التاريخية والقومية.

في مـا يخـص عامـوس غولدبـرغ ينبغـي أن نـشير إلى أنـه مـؤرخ للهولوكوسـت وأنـه، كمـا ينـوّه، رأى منـذ نيسـان ٢٠٢٤ مـن خلال مقـال باللغـة العبريـة نشره في موقـع "مكالمـة محليـة" ("سـيحا مكوميـت") أن مـا يجـري في قطـاع غـزّة هـو "جينوسـايد" (إبـادة جماعيّـة). وهـو يؤكـد أن هـذه اللحظـة كانـت صعبـة بالنسـبة إليـه، سـواء كيهـودي أو كإسرائـيـلي. كمـا يقـرّ بأنـه لـم يكـن أول يهـودي أو إسرائـيـلي رأى أن إسرائيـل تقـوم بإبـادة جماعيـة، وهـو غير فخـور بهـذا، لكنـه في الوقـت عينـه يشـدّد على أنـه منـذ ذلـك الوقـت وهـو يحـاول، في كل مـنبر إسرائـيلي ودولي، أن يشرح ويكتـب ويـدلي بمقـابلات تـروم أن تقـول بوضـوح إن مـا يحـدث هـو إبـادة جماعيـة ويجـب إيقافهـا فـورًا.

تتطـرّق المقابلـة أيضًـا إلى مـا ينبغـي القيـام بـه في الحـاضر، وإلى كيـف يرتسـم المسـتقبل، وفي هذيـن المحوريـن يعـرب غولدبـرغ عـن اعتقـاده بـأنّ أهـمّ مـا يجـب فعلـه الآن، في هـذه اللحظـة القاسـية، هـو إيقـاف الإبـادة الجماعيـة فـورًا، وإدخـال الغـذاء إلى قطـاع غـزّة، ووقـف التطـهير العرقـي في الضفـة الغربيـة، وإدخـال الأدويـة، وحمايـة الأطفـال والرضّـع. هـذا مـا ينبغـي القيـام بـه الآن. لكـن إلى جانـب ذلـك، يبقـى المشروع السـياسي الأهـم بنـاء مزيـد مـن المنصّـات لمسار شراكـة متسـاوية بين الشـعبين، بالرغـم مـن أن هـذا الوقـت ليـس هـو المناسـب لقـول ذلـك بينمـا نحـن في خضـم إبـادة جماعيـة تتوسـع باسـتمرار.

يحـرص غولدبـرغ على توكيـد أن الضحايـا الحقيقـيين لـلصراع هـم الفلسـطينيون في قطـاع غـزّة، وكذلـك في الضفـة الغربيـة، وأن مـا ينبغـي أن يشـغل الجميـع الآن هـو إيقـاف الفظائـع المرتكبـة في غـزة والضفـة، إلى جانـب الدعـوة إلى فـرض عقوبـات على إسرائيـل، والدعـوة إلى ضغـط دولي عليهـا مـن أجـل إيقـاف العنـف الـوحشي ضـد الفلسـطينيين في أراضي ١٩٦٧.

كمـا يعـرب عـن اعتقـاده بـأن التاريـخ العالمـي قـد تـغيّر، وأن المنظومـة القانونيـة الدوليـة تتزعـزع وربمـا حتـى تنهـار، والتاريـخ الفلسـطيني يتـغيّر، وكذلـك التاريـخ اليهـودي. وهـو غير واثـق بمـا فيـه الكفايـة أن هـذا التغـيير هـو نحـو الأفضـل.

(أنطوان شلحت)

مـن هـو عامـوس غولدبـرغ، وكيـف تفضّـل أن يتعـرّف عليـك قـرّاء مجلـة "قضايـا إسرائيليـة"؟

أنـا باحـثٌ يهـوديّ إسرائـيلي ومـؤرّخ للهولوكوسـت في الجامعـة العبريـة. قادني انشـغالي بدراسـة الهولوكوسـت وبذاكرتـه إلى اهتمـام أوسـع بدراسـات الإبـادة الجماعيـة. وعلى مـدى أكثـر مـن عشر سـنوات، أعمـل مـع زميـلي بـشير بـشير، وهـو باحـث في الجامعـة المفتوحـة في إسرائيـل مختـص بالفلسـفة السياسـية، على مشروع مسـتمرّ يتنـاول الهولوكوسـت والنكبـة.

نحـن نكتـب ونفكّـر معًـا في كيفيـة تنـاول الحـدثين بوصفهمـا حـدثين تأسيسـيّين في تشـكيل الهويـة الوطنيـة—لليهـود في إسرائيـل وللفلسـطينيين في فلسـطين والعالـم—وفي كيفيـة تداخلهمـا العميـق. يفـرض هـذا الفهـم خطابًـا مـشتركًا، لأن التاريـخين متشـابكان، وبالتـالي فـإن أي حـلّ يجـب أن يكـون متـداخلًا أيضًـا. الأثـر السـياسي لهـذا التصـوّر هـو مـا يسـمّيه بـشير البيـن-قوميّة المتساوية (Egalitarian Bi-Nationalism).

إنـه خيـالٌ سـياسي يقـوم على الاعتراف والمسـاواة الكاملـة في الحقـوق الفرديـة والجماعيـة لـكلا الشعبين—الشـعب اليهـودي في إسرائيـل والشـعب الفلسـطيني—من دون أي تفـوّق يهـودي أو تفـوّق مـن أي نـوع. نتحـدّث عـن مسـاواة كاملـة في الحقـوق: المدنيـة، والشـخصية، والجمعيـة، وعـن اعتراف كامـل أيضًـا بحـقّ العـودة. كتبنـا مقـالات وأشرفنـا على تحريـر كتـب حـول هـذه الرؤيـة. لكننـا اليـوم نتسـاءل معًـا: مـا الـذي بقـي مـن كلّ ذلـك صالحًـا في ظـلّ الإبـادة الجاريـة في غـزّة؟

في نيسـان ٢٠٢٤ كتبـتُ مقـالًا بالعبريـة في موقـع "مكالمـة محليـة/ سـيحا مكوميـت" وصرّحـتُ علنًـا بـأن مـا يجـري في غـزّة هـو جينوسـايد. كانـت هـذه لحظـة صعبـة بالنسـبة لي، كيهـودي وكإسرائـيلي، أن أعترف بذلـك. لكـن منـذ ذلـك الحين وأنـا أحـاول، في كل مـنبر إسرائـيلي ودولي، أن أشرح وأكتـب وأجـري مقـابلات

■ مواطنون أثناء فرارهم من منطقة إلى أخرى داخل مدينة غزة. (أرشيفية، رويترز)

لأقول بوضوح إن ما يحدث هو إبادة جماعية ويجب إيقافها فورًا.

وسأضيف أنّي منذ عام ٢٠٠٤ ناشط سياسي. يسير نشاطي الميداني وتفكيري التاريخي والسياسي معًا. في الماضي كنت ناشطًا بشكل خاص ضدّ الاحتلال في الخليل والقدس (خصوصًا في الشيخ جرّاح)، واليوم أعمل ضمن مجموعة تُدعى "نشطاء غور الأردن" لمرافقة الرعاة الفلسطينيين في شمال الأغوار، الذين يواجهون عنف المستوطنين والجيش والشرطة، وكلّهم يعملون على تهجيرهم. هذا جزء من المسعى لتطهيرٍ عرقي في مناطق "ج".

الآن أعمل على كتاب جديد عن غيتو وارسو.[٢] كتبتُ في السابق عن اليوميّات التي دوّنها اليهود خلال الهولوكوست، وعن الحياة الدينية في تلك الفترة، وعن موضوعات أخرى. قد لا يرتبط هذا البحث مباشرةً بالهولوكوست والنكبة، لكنه قد يهمّ الفلسطينيين لأنه يتناول سؤالًا جوهريًا: كيف تتصرّف المجتمعات عندما تعيش تحت قمعٍ وحشي وفي زمنٍ من الصدمة الجماعية. ومؤخرًا كتبتُ مقالًا يُظهر أيضًا كيف يتم استغلال ذكرى الهولوكوست، وبشكلٍ مروّع، لتبرير الإبادة في غزة وللسماح باستمرارها.[٣]

بعد السابع من أكتوبر، وفي إطار عملك على موضوع الإبادة الجماعية، متى بدأت تلاحظ أن ما يحدث لم يعد مجرّد "عمليّة عسكرية" بل شيء مختلف تمامًا؟ كيف تبلورت لديك القناعة بأنه بالفعل جينوسايد، وما الذي دفعك إلى الشعور بواجبٍ أخلاقي بأن تكون صريحًا وعلنيًا في هذا الشأن؟

كان ذلك فعلًا مسارًا تدرّجيًا لم يكتمل تمامًا إلا في نيسان ٢٠٢٤. لستُ فخورًا بهذا التأخّر، لأن أصدقاء لي في الولايات المتحدة قالوا منذ أكتوبر ٢٠٢٣ إن ما يحدث هو جينوسايد. أنا أيضًا رأيتُ تلك المؤشّرات، لكنني لم أستطع إلا لاحقًا أن أقول ذلك بيقين، وأن أقف خلف هذا القول أمام زملائي، وأمام أبناء مجتمعي، وأمام المجتمع والعائلة، وأعلن بوضوح

«في نيسان ٢٠٢٤ كتبتُ مقالًا بالعبرية في موقع "مكالمة محلية/ سيحا مكوميت" وصرّحتُ علنًا بأن ما يجري في غزّة هو جينوسايد. كانت هذه لحظة صعبة بالنسبة لي، كيهودي وكإسرائيلي، أن أعترف بذلك. لكن منذ ذلك الحين وأنا أحاول، في كل منبر إسرائيلي ودولي، أن أشرح وأكتب وأجري مقابلات لأقول بوضوح إن ما يحدث هو إبادة جماعية ويجب إيقافها فورًا».

وعلنًا: هذه إبادة جماعية.

بشكل عام، ينبغي القول إن كثيرًا من اليهود الإسرائيليين الذين ناضلوا طوال حياتهم ضد الاحتلال ومن أجل المساواة احتاجوا وقتًا ليستعيدوا لغتهم من جديد. كان هناك شعور بأن المفردات التي كانت صالحة قبل السابع من أكتوبر لم تعد مناسبة بعده. في الأسابيع الأولى بعد ٧ أكتوبر كنتُ، مثل كثير من الإسرائيليين، في صدمة عميقة، بل شخصية جدًا، لأنني عرفت أشخاصًا أُصيبوا أو قُتلوا أو اُختُطفوا [في غلاف غزة]، وعرفت جماعات دُمّرت بالكامل.

مع ذلك، في الأيام الأولى للقصف الرهيب أدركت أن الأمور تتجه نحو منحدر شديد الخطورة. لكن في كانون الأول ٢٠٢٣ وكانون الثاني ٢٠٢٤، عندما بدأت جنوب أفريقيا إجراءاتها ضد إسرائيل في محكمة العدل الدولية، بدأ يتبلور لديّ أنّ ما يجري هو فعلًا جريمة إبادة جماعية بكل معنى الكلمة. وكما ذكرت، في نيسان ٢٠٢٤ استطعت عندها أن أصرّح بذلك بوضوح، وأن أقدّم تبريرًا قائمًا على قراءة معمّقة للواقع.

منذ ذلك الحين، وأنا أتحدّث في إسرائيل وخارجها عن هذا الموضوع وأجاهد بما أستطيع لوقفه.

عذرًا إن كنتُ أقطع حديثك للحظة: عندما تقول إن ما يجري هو جينوسايد، هل تقصد أساسًا النتائج المترتّبة على أفعال إسرائيل في الحرب (مع التشديد على النتائج)، أم أنك تشير تحديدًا إلى النيّات الإسرائيلية؟ فهذه نقطة مركزية في النقاش الدائر حول الموضوع.

هنا من المهم توضيح ما المقصود بجينوسايد. يمكن فهمه إمّا كجريمة في القانون الدولي—أي كمفهوم قانوني—أو كتجربة تاريخية. يمنح القانون وزنًا كبيرًا لعنصر النيّة، وهذا ما تنصّ عليه اتفاقية منع جريمة الإبادة الجماعية والمعاقبة عليها التي اعتمدتها الأمم المتحدة عام ١٩٤٨.[4] لكن مفهوم النيّة نفسه إشكاليّ للغاية. كيف يمكن، عمليًا، معرفة ما هي النيّة؟ وما معنى "نيّة دولة" أصلًا؟ أحيانًا توجد نوايا عدّة متزامنة، وأحيانًا تتغيّر بمرور الوقت. لهذا السبب يصعب جدًا إثبات نيّة الإبادة أمام المحاكم الدولية. لا شكّ لديّ في أن إسرائيل أثبتت نيتها ارتكاب جريمة إبادة جماعية، سواء من خلال تصريحات قادتها أو من خلال طريقة عملها في غزة. ورغم أنني لست خبيرًا قانونيًا، فإنني أقدّر أنها ستُدان أمام محكمة العدل الدولية (ICJ) بارتكاب جريمة إبادة جماعية.

أمّا أنا فأدرّس الجينوسايد كتجربة تاريخية، لا كمفهوم قانوني فقط. فالإبادة الجماعية تعني تدمير جماعة بشرية. ولا يتحقق هذا دائمًا عبر قتل كلّ أفراد المجموعة. أحيانًا تتمّ الإبادة عبر قتل واسع النطاق، لكنه ليس شاملًا، وأحيانًا تتمّ عبر تدمير شروط الحياة المادية والاجتماعية بالكامل كما يحدث في غزّة. وهذا بالضبط ما قصده رافاييل لِمكين (Raphael Lemkin)، المحامي اليهودي البولندي الذي صاغ مصطلح "جينوسايد".

في التاريخ وقعت حالات عديدة من الإبادة الجماعية، وبعضها أنا أقوم بتدريسه وليس فقط الهولوكوست: الإبادات الاستعمارية في أميركا الشمالية والجنوبية، وفي أفريقيا مثل إبادة شعوب الهيريرو (Herero) والناما (Nama) على يد الألمان في جنوب غرب أفريقيا. وهناك الإبادة الأرمنية، وإبادة سريبرينيتسا (Srebrenica) في البوسنة التي اعترف بها القضاء الدولي، رغم أنّ كثيرين يرون أن نطاق الإبادة في البوسنة كان أوسع مما أقرّت به المحكمة. كما يعتبر

■ مواطنـون يحاولـون الحصـول على وجبـات مـن مطبـخ خيري في غـرب مدينـة غـزة في ذروة التجويـع أثنـاء الحـرب. (أرشـيفية، أ ف ب)

كـثيرون أن المجاعـة الـكبرى في أوكرانيـا بين ١٩٣٢–١٩٣٣ كانـت جينوسـايد نفـذّه الاتحـاد السـوفييتي ضـد الأوكرانـيين، والمعـروف باسـم "الهولودومـور" (Holodomor). هـذه الحـالات، إلى جانـب حـالات أخـرى، هـي جـزء ممـا أدرّسـه وأتناولـه أكاديميًـا.

بعـض هـذه الأحـداث لـم يُـعترف بهـا قانونيًـا كجينوسـايد لأنهـا وقعـت قبـل اعتمـاد اتفاقيـة الأمـم المتحدة لمنـع جريمـة الإبـادة الجماعيـة والمعاقبـة عليهـا (كانـون الأول/ديسـمبر ١٩٤٨). وبعضهـا يُصنَّـف كجينوسـايد وقـد اعترفـت بـه دول عديـدة، حتـى إن لـم تصـل القضايـا نفسـها إلى حُكـم قضائـي دولي.

ومهمـا كان الأمـر، فـإن الإبـادة الجماعيـة—بوصفهـا ظاهـرة تاريخيـة—كانـت موجـودة، بـل إنهـا تتصاعـد في الـعصر الحديـث. وهـذا أحـد مجـالات بحثـي وكتابتـي. وبحسـب فهمـي، مـا يجـري في غـزّة هـو جينوسـايد بمعنـاه القانونـي وبمعنـاه التاريخـي معًـا.

نحـن نعلـم أن الـردّ الإسـرائـيلي كان غير متناسـب على هجـوم ٧ أكتوبـر. لكـن اسـمح لي أن أطـرح سـؤالًا إضافيًـا: عندمـا نتحـدّث عـن هجـوم ٧ أكتوبـر نفسـه، ومـن منظـور الحيـاة الإسرائيليـة ذاتهـا، أي المجتمـع الإسـرائـيلي، هـل رأى هـذه المجتمـع هجـوم حمـاس نفسـه باعتبـاره أيضـا هجومًـا "غير متناسـب" في سـياق الاحـتلال، والكولونياليـة، والحصـار، ومـا إلى ذلـك؟ أم أنّ النقـاش داخـل إسـرائيـل بـدأ فقط مـن نقطـة عـدم التناسـب في الـردّ الإسـرائـيلي؟ مـا رأيـك في ذلـك؟

بحسـب فهمـي، فـإن الغالبيـة السـاحقة مـن الإسرائيلـيين لا تـرى في المقاومـة الفلسـطينية أي مفهـوم لـ "التناسـب". معظـم الإسرائيلـيين لا يعترفـون بالاحـتلال، أو بالأبارتهايـد، أو بالضـمّ، ولا يـرون أصلاً وجـود بنيـة قمـع أو اسـتعمار إسرائـيلي. مسـتوى نـزع الإنسـانية عن الفلسـطينيين عميـق إلى حـدّ أنّ كلّ فعـل مقاومـة يُنظـر إليـه بوصفـه غير شرعـي تمامًـا. لذلـك، مـن منظـور

«بشكل عام، ينبغي القول إن كثيرًا من اليهود الإسرائيليين الذين ناضلوا طوال حياتهم ضد الاحتلال ومن أجل المساواة احتجوا وقتًا ليستعيدوا لغتهم من جديد. كان هناك شعور بأن المفردات التي كانت صالحة قبل السابع من أكتوبر لم تعد مناسبة بعده. في الأسابيع الأولى بعد ٧ أكتوبر كنتُ، مثل كثير من الإسرائيليين، في صدمة عميقة، بل شخصية جدًا».

إسرائيلي، فإن هجوم ٧ أكتوبر لا سياق له ولا تبرير من الأساس. إنه يُفهم كحدث خارج التاريخ، بل يُنظر إليه أحيانًا بوصفه حدثًا "هولوكوستيًا" في طبيعته.

وعندما قال قادة مثل الأمين العام للأمم المتحدة أنطونيو غوتيريش إن هناك سياقًا تاريخيًا يجب فهمه، اتُّهموه فورًا بمعاداة السامية. هذه إحدى المشكلات العميقة: بالنسبة لمعظم الإسرائيليين، لا يُنظر إلى ٧ أكتوبر ضمن سياق النكبة، أو الاحتلال، أو الأبارتهايد، أو الحصار، أو الضمّ، أو المقاومة، بل يُفهم كحدث منفصل تمامًا، منفصل عن أيّ تاريخ. وكأن التاريخ بدأ في ٧ أكتوبر ٢٠٢٣.

لذلك، فإن كلمة "عدم التناسب" لا تصلح هنا لوصف الطريقة التي فهم بها الإسرائيليون—ولا يزال معظمهم يفهمون—هجوم السابع من أكتوبر. فكلّ شكل من أشكال المقاومة الفلسطينية، سواء كان عسكريًا أو سياسيًا أو مدنيًا وغير عنيف، يُعدّ في نظر أغلبية الإسرائيليين غير مبرّر من الأساس. لهذا لا يُنظر إليها كاستجابة، بل كجريمة، كفعل بلا شرعية وبلا تفسير على الإطلاق.

وصف كثيرون في إسرائيل هجوم ٧ أكتوبر بأنه جينوسايد. بل وحتى بعض القانونيين الدوليين—من غير اليهود وغير الإسرائيليين—تساءلوا في الأشهر الأولى عمّا إذا كان هجوم حماس قد يحمل طابعًا إباديًا. على سبيل المثال، أوكامبو (Luis Moreno Ocampo)، أول مدّعٍ عام في المحكمة الجنائية الدولية (ICC) وهو من أصلٍ أرجنتيني، أبدى هذا التردّد في كانون الأول ٢٠٢٣. أمّا أنا شخصيًا فأرفض هذا الطرح تمامًا. أستطيع أن أشرح ذلك، مع أنّني أرى أنّ جرائم خطيرة ارتُكبت في ذلك الهجوم، إلا أنّه ليس جينوسايد.

لكن في النهاية، وعلى المستوى الجوهري، فإنّ معظم الإسرائيليين لا يعترفون أصلًا بحقّ الفلسطينيين في أي شكل من أشكال المقاومة، حتى بشكلها غير العنيف. فبرأي أغلبية الإسرائيليين، فإن حركة المقاطعة BDS هي أيضا "معادية للسامية"، والسلطة الفلسطينية "داعمة للإرهاب"، وأي مطالبة فلسطينية تُعدّ غير شرعية. من منظورهم، لا خيار أمام الفلسطينيين سوى الخضوع الكامل والاعتماد المطلق على النظام الإسرائيلي، وهو نظام يقوم على تفوّق يهودي صهيوني. وكل إمكانية أخرى غير مقبولة لدى معظم اليهود في إسرائيل.

بالنسبة لي، من الواضح أنّ الصهيونية تحمل في داخلها منذ البداية عنصرًا قويًا من الاستعمار الاستيطاني، بما في ذلك منطق الإقصاء الكامن في هذا النمط من الاستعمار. أنا واعٍ تمامًا لكارثة النكبة، ولحقيقة أنّنا نحن، الإسرائيليين، نتحمّل المسؤولية عن استمرارها حتى اليوم. وكما ذكرت، أنا مدرك بالكامل لواقع الأبارتهايد، والحصار، ومحاولات إسرائيل محو القضية الفلسطينية.

لكن هذا الوعي، حتى إن كان يفسّر هجوم ٧ أكتوبر، فإنه لا يبرّره. فبرأيي، القتل الجماعي العشوائي لنساء وأطفال ومسنّين إسرائيليين، وخطفهم وهدم أحياء كاملة، غير مبرّر على الإطلاق بالنسبة لي.

حسناً، دعني إذن أقارب الموضوع على النحو التالي: هل كانت الاستجابة الإسرائيلية ردّ فعل اندفاعيًا، نابعًا من الغضب وصدمة أحداث السابع من أكتوبر، ولذلك اكتسبت طابعًا يُشبه الإبادة الجماعية؟ أم يمكن القول إنّ لدى إسرائيل نزعات إباديّة راسخة

«أمّا أنا فأدرّس الجينوسايد كتجربة تاريخية، لا كمفهوم قانوني فقط. فالإبادة الجماعية تعني تدمير جماعة بشرية. ولا يتحقق هذا دائمًا عبر قتل كلّ أفراد المجموعة. أحيانًا تتمّ الإبادة عبر قتل واسع النطاق، لكنه ليس شاملًا، وأحيانًا تتمّ عبر تدمير شروط الحياة المادية والاجتماعية بالكامل كما يحدث في غزّة. وهذا بالضبط ما قصده رافاييل لِمكين (Raphael Lemkin)، المحامي اليهودي البولندي الذي صاغ مصطلح "جينوسايد"».

منذ زمن طويل، وإنّ السابع من أكتوبر قد وفّر لها نافذة فرصة لتحقيق ما كانت تطمح إليه مسبقًا؟

لستُ متأكدًا أنهم خطّطوا للأمر بطريقة منظّمة إلى هذا الحد؛ فالأمور لا تعمل دائمًا بطريقة منهجية. لكن توجد فانتازيا صهيونية كهذه منذ زمن طويل تتعلق بغزة، ولكن أيضًا بما هو أبعد بكثير من غزة. فانتازيا تقول إنّه سيأتي يوم نتخلّص فيه من الفلسطينيين. وكما صاغها صديقي الراحل ألون كونفينو (Alon Confino) في كتابه عن طنطورة والنكبة: إنها فانتازيا "إسرائيل بلا فلسطينيين، أو إسرائيل ذات عدد أقل بكثير من الفلسطينيين". هذه فانتازيا سياسية ذات قوة هائلة ومتجذّرة بعمق.

كانت هناك أيضًا خطط فعلية. نحن نعلم أنّ وزارة الاستخبارات برئاسة غمليئيل (Gila Gamliel-Demri)، على سبيل المثال، قدّمت في بدايات الحرب خططًا للترحيل الكامل لسكان غزّة إلى سيناء. لكنني لا أعرف إذا كانت هناك خطة منظّمة مسبقًا، لدى الجيش أو الحكومة، لتدمير غزّة وتهجير جميع سكانها. قد يكون ذلك صحيحًا، كما قالت مؤخرًا زوجة رئيس الأركان هرتسي هليفي إنه حين غادر المنزل في ٧ أكتوبر قال لها إنّ غزّة ستُدمَّر. أو كما قال رئيس الاستخبارات أهارون حَليوَه، الذي اعتقد منذ البداية أنّ ما لا يقل عن خمسين ألف فلسطيني سيُقتلون. أي أنّ القتل الجماعي كان جزءًا من خطط الحرب.

لكن لا يمكن الجزم بوجود خطة واضحة المعالم أو بطبيعتها الدقيقة. ما نعرفه بثقة هو التالي: كانت هناك فانتازيا سياسية، وفجأة، في خضمّ الحرب، عاجلًا أو آجلًا، بدأوا يرون أنّ تنفيذها ممكن، وأنه جارٍ بالفعل، وأنه في الواقع هذه هو ما يريدونه. ومنذ اللحظة التي قدّم فيها ترامب "خطة الريفييرا"، لم يعودوا يحاولون الاختباء أو الإنكار. الترحيل والإبادة تحوّلا إلى هدف معلن، وإلى سياسة رسمية للحكومة.

لستُ أعلم إن كنا سنعثر بعد خمسين أو ستين عامًا في الأرشيف على خطة سرّية كتبها رئيس الأركان تقول: "نريد تدمير غزّة، سيستغرق ذلك ثلاث سنوات، وهذه هي الخطوات...". لا فكرة لديّ إن كان شيء كهذا موجودًا. ربما نعم، وربما لا. لكن في العادة، معظم الإبادات الجماعية ليست مخططات جاهزة مسبقًا، بل عمليات تتطوّر تدريجيًا، أحيانًا بسرعة، وأحيانًا ببطء. الواضح تمامًا هو أنّ الخطاب الإبادي كان حاضرًا منذ اللحظة الأولى. كان هناك إجماع إسرائيلي على وجوب "التخلّص" من غزّة بطريقة ما. كما توفّرت شرعية دولية وشرعية داخلية لاستخدام قوة قاتلة لم نشهد مثلها من قبل.

أفترض أنّ هذه التوجّهات راحت تتبلور شيئًا فشيئًا إلى برنامج عمل فعلي (حتى إن لم يُسمَّ بهذا الاسم) وتحوّلت في الواقع إلى عملية عسكرية هدفها القضاء على غزّة بأكملها. لستُ متأكدًا من وجود "خطة جاهزة في الجوارير" أُخرجت فجأة وكانت تنص على: "الآن لدينا عامان لنقضي على غزّة". لكن عمليًا، هذا ما جرى الحديث عنه منذ اللحظة الأولى، وهذا ما بُني ميدانيًا، والضباط على الأرض فهموا أنّ هذا ما هو مطلوب منهم، وأنه لن يوقفهم أحد. ومثل أي جينوسايد، وكأي حدث تاريخي بهذا الحجم، سنحصل (إذا حصلنا أصلًا) على إجابات لهذه الأسئلة لاحقًا فقط: عندما يبدأ أشخاص من داخل المنظومة بالتحدّث، وربما فقط عندما تُفتح الأرشيفات، إن كانت ستفتح أصلًا، بعد عقود طويلة. والحقيقة أنّ هذا النمط من الأسئلة يبقى موضع

نقاش حتى في كثير من الإبادات الجماعية وأعمال العنف الواسع، بعد عقود من انتهائها. حتى اليوم، لا يزال المؤرّخون يختلفون حول كيف تطوّر بالضبط جينوسايد الأرمن، وكذلك الإبادة التي ارتُكبت ضد اليهود على يد النازيين.

في كلّ الأحوال، وبخصوص غزّة، استغرق الأمر وقتًا كي أفهم أنّ كلّ القطع تتجمّع في اتجاه واحد: تتشكّل دينامية، وتتشكّل مقولة، وتتشكّل نيّة، وتتشكّل ممارسة إباديّة. ثم ترى نتائج ذلك على الأرض بوضوح.

كان أصدقائي وزملائي يسألونني طوال الوقت: "لكن ماذا تريد؟ لا بدّ من الردّ. حقّ الإسرائيلي في الدفاع عن النفس محفوظ". وهذا منطقي برأيي، كان لإسرائيل حقّ الردّ على ذلك الهجوم.

لكن في مرحلةٍ ما فهمتُ. وهذا ما استطعتُ أن أصوغه لنفسي، وهو أنّ وعي "الدفاع عن النفس" نفسه يمكن أن ينزلق بسرعة نحو اتجاهات إباديّة. فالشعوب ترتكب جينوسايد عادةً عندما تشعر أنها تحت هجوم، حقيقي أو متخيَّل، وبخاصة في لحظة ضعف. يكاد لا يوجد شعب ارتكب إبادة جماعية دون أن يشعر بأنه مُستهدَف أو محاصر وظهره إلى الجدار، وعندها ينتقل إلى الخيار الراديكالي المسمى إبادة. لهذا السبب، فإن شعورنا بأننا "نردّ دفاعًا عن النفس"، مع أن موازين القوى على العكس من ذلك تماماً، هو بالضبط ما قد يقود إلى الجينوسايد. هذه هي اللحظة التي تُرتكب فيها الإبادات الجماعية.

ويصبح الأمر أكثر خطورة حين توجد عملية طويلة ممتدّة عقودًا، كما في الحالة الإسرائيلية، وتشمل عنفًا مستمرًا، ونزع إنسانية، ولا تماثلًا بنيويًا شديدًا، وغير ذلك من العوامل التي تُهيّئ الأرضية وتدفع في النهاية إلى هذا المسار.

ثم يُطرح السؤال التالي: لماذا لا يتوقّف هذا كلّه؟ فهناك عدد متزايد من الأشخاص، بل حتى باحثين مختصّين في دراسات الإبادة الجماعية، يشخّصون ما يحدث بوضوح. فلماذا لا توجد قوّة تُوقف ذلك؟ برأيي، لأنّ المجتمع الإسرائيلي—إذا جاز لي التعبير—قد استغرق في سبات عميق.

أعتقد أنّ المجتمع الإسرائيلي فَسَد من الجذور، وبعمق شديد. ولا أعرف إن كنا سنتمكّن يومًا من التعافي من هذا الفساد الأخلاقي. فالمسألة ليست مجرد غضّ طرف. القوى المظلمة، الإباديّة، القاتلة، أو أولئك الذين يعرفون تمامًا ما يجري لكنهم يفضّلون اللامبالاة؛ هؤلاء ليسوا نائمين. هم يعرفون، لكنهم يقولون: لا نريد أن نرى. لا يهمّنا الأطفال الذين يُقتلون هناك. بل وحتى: نريد أن يُقتلوا.

الطيارون، المدفعجية، ضباط الاستخبارات، ليسوا فقط أنصار بن غفير. الكثيرون جدًا فسدوا أخلاقيًا حتى العظم. ترى ذلك في استطلاعات الرأي، وفي الكنيست حيث يدعم نحو ثمانين بالمئة هذا الجينوسايد. ربما في الآونة الأخيرة برزت أصوات نادرة، مثل عضو الكنيست كريب (Gilad Kariv)، ويجب تقدير موقفه؛ فهو لا يقول كل ما ينبغي قوله، لكنه يقول أكثر بكثير من الآخرين.

لكن كل البقية، أي أفراد المجتمع ورجال السياسةُ فسدوا بعمق بفعل العنصرية، ونزع الإنسانية، والنزعة القتالية، وغياب التعاطف، والرفض المطلق لفهم المسارات التاريخية. ولا أعرف كيف يمكن أن نخرج من هذا الوضع. أحياناً أمشي في الشارع وأنظر إلى الناس وأسأل نفسي: كم واحدًا قتل؟ ماذا فعل؟ ما الذي يؤيّده؟ أرى علمًا، ولا أراه علم إسرائيل؛ أرى علمًا آخر، لا أريد أن أذكر أيّ علم، لكن هذا هو ما يظهر أمامي في خيالي.

إنها دولة ومجتمع تغلغَل فيهما الانحطاط الأخلاقي والسياسي والتاريخي بعمق شديد. ولا أعرف حتى كيف أشرح تمامًا لماذا لا يتوقّف هذا كلّه، لأننا ما زلنا داخل الحدث نفسه. لكن من الواضح أنّ جزءًا كبيرًا من المجتمع الإسرائيلي يريد إنهاء الحرب، ليس بالضرورة بسبب الإبادة، بل لأسباب أخرى: بسبب ملفّ المختطَفين، بسبب الإرهاق الواقع على جنود الاحتياط، بسبب غياب أي هدف واضح، بسبب الشعور بالملل والإنهاك، بسبب الصدمة، وبسبب حالات الانتحار، وبسبب الاقتصاد، وبسبب عوامل كثيرة أخرى. مع ذلك، فثمة جزء متزايد من الإسرائيليين بدأ يدرك فظاعة ما نرتكبه في غزّة.

وهكذا، ولأسباب متعدّدة، فإنّ معظم اليهود في إسرائيل اليوم لا يريدون استمرار الحرب. لكنهم لا ينجحون في وقفها. فالقوى المظلمة شديدة القوّة وشديدة الإصرار، ولا تزال تتمتع بدعم دولي كافٍ، وخاصة من الولايات المتحدة، بحيث يصبح إيقافها

«ما نعرفه بثقة هو التالي: كانت هناك فانتازيا سياسية، وفجأة، في خضمّ الحرب، عاجلًا أو آجلًا، بدأوا يرون أنّ تنفيذها ممكن، وأنه جارٍ بالفعل، وأنه في الواقع هذه هو ما يريدونه. ومنذ اللحظة التي قدّم فيها ترامب "خطة الريفييرا"، لم يعودوا يحاولون الاختباء أو الإنكار. الترحيل والإبادة تحوّلا إلى هدف معلن، وإلى سياسة رسمية للحكومة».

أمـرًا مسـتحيلًا في الوقـت الراهـن.

لكـن هنـا يظهـر السـؤال الحقيقـي: إذا كانت غالبيـة المجتمـع الإسرائـيلي تفهـم أنـه لا يمكـن مواصلـة الحـرب، فمـا هـو الحـلّ طويـل الأمـد مـن منظورهـا؟ وكيـف تتخيّـل مسـتقبلها؟

أعتقـد أنّـه مـن الواضـح للجميـع أنّ معظـم فئـات المجتمـع الإسرائـيلي التـي تريـد وقـف الحـرب لا تملـك أي حـلّ بعيـد المـدى. الصـورة واضحـة تمامًـا: بين البحـر والنهـر يوجـد اليـوم تقريبًـا نصـف إسرائيلـيين يهـود ونصـف فلسـطينيين، بـل وحتـى أغلبية فلسـطينية طفيفـة. فـإذا أخـذت في الحسـبان غـزّة والضفـة الغربيـة والقـدس الشرقيـة وفلسـطينيي الداخـل، فـإنّ عـدد الفلسـطينيين اليـوم أكبر قلـيلًا مـن عـدد اليهـود.

ودولـة قوميـة يهوديـة لا تسـتطيع القبـول بوضـع تكـون فيـه "دولـة الشـعب اليهـودي" بينمـا الأغلبيـة ليسـت يهوديـة. إذًا مـاذا تفعـل؟ الجانـب "الليـبرالي" الـذي يريـد وقـف القتـال لا يملـك جوابًـا على هـذا السـؤال.

أمّـا الطـرف الآخـر فلدَيـه إجابـة. إنـه يعمـل على تفكيـك مـا تبقّـى مـن الديمقراطيـة (التـي كانـت أصلًا مخصّصـة لليهـود وحدهـم)، وبنـاء نظـام أبارتهايـد عنيـف: لليهـود كلّ الحقـوق؛ وللفلسـطينيين إمـا لا حقـوق إطلاقًـا، أو حقـوق ضئيلـة جـدًا، أو يُدفعـون إلى غيتـوات واسـعة. أمّـا الشـتات الفلسـطيني، فقـد جـرى تجاهلـه كليًـا.

لكـن هـذا النمـوذج غير قابـل للاسـتمرار وسـيفضي إلى مزيـد ومزيـد مـن سـفك الدمـاء. لأنّ وضعًـا تُمنَـح فيـه مجموعـة كلّ الحقـوق، فيمـا تُحـرم مجموعـة أخـرى مـن الحقـوق، بمـا فيهـا الحقـوق الوطنيـة والشـخصية، وهـو وضـع لا يمكـن أن يصمـد طـويلًا.

لماذا لا يمكـن أن يسـتمر؟ لأنـه يتطلّـب حربًـا بلا نهايـة. فطـالما توجـد مجموعـة سـكانية بلا حقـوق، أي الفلسـطينيون، فسـوف تُقـاوم. سـيجدون دائمًـا طريقـة للمقاومـة. وإذا لـم تكـن إسرائيـل مسـتعدة للتوصّـل إلى تسـوية، فهـي محكومـة بحـرب دائمـة. والمشـكلة أنـه عندمـا لا تُبرَم تسـويات، يصـل الإسرائيليـون في مرحلـة مـا إلى حالـة مـن السـأم الشـديد، فيبـدأون بالبحـث عـن حـلّ نهائـي وشـامل للمسـألة.

لكن ما الحلّ؟

اليـمين لديـه جـواب واضـح: التوجّـه نحـو "حـلّ نهائـي": التخلّـص مـن الفلسـطينيين. طـرد أكبر عـدد ممكـن، أو إدخـال مـن يبقـون في بنيـة سياسـية لا يسـتطيعون فيهـا حتـى المقاومـة، وإبقاؤهـم تحـت قمـع عنيـف. هـذه هـي "خطـة الحسـم" التـي يطرحهـا سـموتريتش: لـن تقـوم دولـة يهوديـة إلا إذا قبـل الفلسـطينيون بنظـام الأبارتهايـد. وإن لـم يقبلـوا؛ فالمـصير هـو الترحيـل أو القتـل.

لكـن وضعًـا كهـذا لا يمكـن أن يتعايـش حتـى مـع المظهـر الخارجـي للديمقراطيـة. الأبارتهايـد لا يمكـن أن يسـتمرّ، ولا يمكـن وصفـه بالديمقراطيـة حتـى لـو اقتصرت الديمقراطيـة على اليهـود فقـط. وبالتـالي، حتـى الديمقراطيـة الخاصـة باليهـود نفسـها تتفـكّك مـن الداخـل.

بالنسـبة لسـموتريتش وبـن غـفير ونتنياهـو، هـذا كلّـه ممتـاز. فهـم يقولـون بوضـوح: لسـنا معنـيّين بالديمقراطيـة. نريـد أن نكـون الأغلبيـة السـاحقة والقـوة المهيمنـة. وإذا لـم يكـن الفلسـطينيون مسـتعدّين لقبـول سـلطتنا، فسـنعمل بالعنـف.

«لكن كل البقية، أي أفراد المجتمع ورجال السياسة فسدوا بعمق بفعل العنصرية، ونزع الإنسانية، والنزعة القتالية، وغياب التعاطف، والرفض المطلق لفهم المسارات التاريخية. ولا أعرف كيف يمكن أن نخرج من هذا الوضع. أحياناً أمشي في الشارع وأنظر إلى الناس وأسأل نفسي: كم واحدًا قتل؟ ماذا فعل؟ ما الذي يؤيّده؟ أرى علمًا، ولا أراه علم إسرائيل؛ أرى علمًا آخر، لا أريد أن أذكر أيّ علم، لكن هذا هو ما يظهر أمامي في خيالي».

قد يكون ذلك عبر نظام أبارتهايد تمييزي وعنيف، وقد يكون تطهيرًا عرقيًا، وقد يصل حتى إلى الإبادة الجماعية. كلّ ذلك شرعيّ في نظرهم من أجل إنتاج أغلبية يهودية وأقلّية فلسطينية خاضعة لا حقوق لها، ولا قدرة لها حتى على المقاومة. وهم يعملون لتحقيق هذه الغاية Whatever it takes.

هذه هي "خطة الحسم" التي يطرحها سموتريتش. ونحن نراها تُطبَّق ليس فقط في غزّة، بل أيضًا في الضفة الغربية، وفي القدس الشرقية (بأشكال مختلفة) وأيضًا داخل إسرائيل نفسها.

داخل إسرائيل لا توجد عمليات قتل مباشر من جانب قوات الأمن ضد المواطنين العرب، لكن هناك تركٌ كامل للمجتمع العربي تحت رحمة الجريمة المنظمة، وقمعٌ شديد لحرية التنظيم والاحتجاج. هناك خوف دائم من المراقبة والتتبع الأمني.

أمّا إمكانية الوصول إلى اتفاق فهي شبه معدومة. لأنّ اليهود في إسرائيل، بما في ذلك من يُسمَّون "الليبراليين"، غير مستعدّين لتقديم الحدّ الأدنى الذي يحتاجه الفلسطينيون ليعيشوا بكرامة، وبمساواة، وبحقّ في تقرير المصير. اليهود في إسرائيل غير مستعدين للتخلّي عن الهيمنة اليهودية، حتى بأبسط مستوياتها.

مشروع الاستيطان يمنع قيام دولة فلسطينية. قانون القومية، والصهيونية نفسها، والبنية السياسية كلّها تمنع المساواة. لذلك، المطلوب هو تغيير جذري وثوري، ليس فقط على مستوى السياسة، بل على مستوى التصور الذاتي والنفسي لليهود في إسرائيل؛ مطلوب تغير إسرائيلي في الموقف تجاه أنفسهم وتجاه الفلسطينيين؛ حتى يكون هناك احتمال لولادة أي حلّ يبدأ بالمساواة والكرامة. لكنّ الغالبية الساحقة من اليهود في إسرائيل غير مستعدّة لهذا المسار.

وكنتيجة لذلك، تكاد كامل المنظومة السياسية في إسرائيل تصطفّ اليوم خلف اليمين المتطرّف. وحتى إن لم يُقل ذلك صراحة، فإنّ المخيال السياسي يحمل دعمًا واسعًا لفكرة الترانسفير، والتطهير العرقي على شاكلة "خطة ترامب". وبحسب الاستطلاع الذي ننظر إليه، فإنّ أكثر من ٨٠٪ من اليهود في إسرائيل أيّدوا بشكلٍ ما التهجير القسري أو الترانسفير الواسع. لماذا؟ لأنّ الجميع يفهم في النهاية أنه إذا لم يكونوا مستعدين للتغيير سياسيًا ونفسيًا، فهذه [أي خطة ترامب] في نظرهم الحلّ الوحيد. في الخلاصة، فإن الحلّ السياسي يتطلّب منّا، نحن اليهود، التخلّي عن امتيازات كبيرة جدًا، وعن تصور ذاتي متجذّر قائم على الهيمنة اليهودية، والغالبية الساحقة من اليهود غير مستعدة لذلك. ولهذا السبب، فإنّ المجتمع اليهودي في إسرائيل يتطرّف يمينًا باستمرار.

لكن هل يدرك الإسرائيليون أن داخل المجتمع الفلسطيني توجد رؤية تعتبر أنه من الممكن بناء شراكة مع بعض فئات المجتمع الإسرائيلي؟ شراكة قد تُحدث تغييرًا فعليًا. فإلى جانب التيار المرتبط بالسلطة الفلسطينية ورؤيته الخاصة، هناك أيضًا مثقفون وفاعلون فلسطينيون—غير المنتمين بالضرورة إلى السلطة—يرون في المجتمع الإسرائيلي قوى يمكن التعاون معها. هل هذا حاضر في الوعي الإسرائيلي؟

أنا أعرف بعض الأشخاص الذين تتحدّث عنهم. وأنا على تواصل مع بعضهم؛ فهم جزء من مشاريعي الأكاديمية والسياسي. هذا هو مستقبلنا، وأنا أؤمن بذلك بكل قلبي. إذا كان هناك أي احتمال

لمستقبل مختلف، فهو يكمن هنا.

يوجد اليوم في إسرائيل أقلّية صغيرة من اليهود، لكنها تتوسّع تدريجيًا، تؤمن بإمكانية هذه الشراكة. حركة "نقف معاً" مثال على ذلك. لقد تعرّضت الحركة لانتقادات شديدة، من فلسطينيين ومن حركة الـBDS، وأنا أعتقد أنّ هذه الانتقادات غير مبرَّرة. فهم ينجحون، من خلال تفكير سياسي ذكي، في توسيع حدود الخطاب خطوة بعد خطوة. لا يأتون لا لليهود ولا للفلسطينيين بشعار: "الآن اعملوا معًا لإنهاء الصراع". بل يقولون: اليوم يمكن قول هذا، وغدًا يمكن قول المزيد. إنهم يبنون شراكة من الأسفل، من القاعدة الشعبية، وهي تنمو، سواء بين الفلسطينيين المواطنين في إسرائيل أو بين اليهود. إنهم يناضلون يوميًا، يُعتقلون، يُضربون، ويواصلون إطلاق مبادرات ومشاريع ذات أهمية كبيرة.

هناك أيضًا العديد من مجموعات الشراكة العربية-اليهودية—في الأكاديميا، وفي النشاط السياسي، وفي مشاريع مثل "مقاتلون من أجل السلام" الذين ينظّمون مراسم إحياء مشتركة لضحايا الصراع، يهودًا وفلسطينيين. وهذه المراسم تتحوّل إلى حدث أكبر عامًا بعد عام، رغم العنف الذي تواجهه من جانب المؤسّسة ومن قِبل جزء كبير من المجتمع الإسرائيلي. نحن أقلية صغيرة؛ لكن موجودة.

من الواضح أنّ أهمّ ما يجب فعله الآن، في هذه اللحظة القاسية، هو إيقاف الإبادة الجماعية فورًا، وإدخال الغذاء إلى غزّة، ووقف التطهير العرقي في الضفة، وإدخال الأدوية، وحماية الأطفال والرضّع. هذا ما ينبغي القيام به الآن. لكن إلى جانب ذلك، يبقى المشروع السياسي الأكبر هو بناء مزيد من المنصّات لمسار شراكة متساوية كهذا. هذه الشراكة ما زالت صغيرة، وهي أقلّية ضئيلة داخل المجتمع اليهودي، لكنها موجودة، ويمكن أن تنمو بشكل كبير إذا توفّرت لها الظروف السياسية المناسبة.

وأنا أعلم أنّ كثيرين من الفلسطينيين سيقولون إنهم لا يريدون أي شراكة مع الإسرائيليين. وأنا أفهم ذلك تمامًا. لكنك سألت عن إمكانية الشراكة، لذلك أجيب من زاوية الشراكة التي أراها مشروعًا سياسيًا بالغ الأهمية في المدى البعيد.

وأريد أن أقول شيئًا آخر. حتى داخل الجمهور الذي دعم الترانسفير، ليس الجميع من طينة واحدة. هناك الإباديّون الأيديولوجيون، وهم كثيرون، لكن هناك أيضًا من تحرّك من موقع الغضب، أو الصدمة، أو نتيجة نزع الإنسانية عن الفلسطينيين. وهناك من قد يغيّر رأيه بعد عام. أنا أعرف أشخاصًا من هذا النوع؛ أعرف أشخاصًا أيدوا ما فعلته إسرائيل حتى الآن، واليوم يقولون: لقد تجاوزنا كل حدّ. بعضهم بدأ يندم على ما فعل، ويبحث عن طريق نحو شراكة.

أنا لا أقول إنهم قادرون فعلًا على هذه الشراكة، وبالتأكيد لا أدّعي أنّ على الفلسطينيين أن يسامحوهم على دعمهم، ولو جزئيًا، لِما حدث. لكنّي أعتقد أنّه من منظور سياسي، يجب القيام بتمييزات دقيقة وعدم وضع الجميع في سلّة واحدة.

في ظرفٍ سياسي مختلف قد نتمكّن من التوسّع، وربما حتى أن نصبح أغلبية لدى الشعبين، وأن نطرح مقترحات جديدة. وأنا شخصيًا أشعر بشيء من الغرابة، بل بشيء من شبه العبثية، حين أقول هذا في الوقت الذي تدمّر فيه إسرائيل في هذه اللحظة مستشفى في غزّة، وتنشغل بإبادة الفلسطينيين؛ يبدو ذلك أشبه بالخيال منه بالواقع. مع ذلك، أقول للفلسطينيين في كل مكان: في الداخل المحتل عام ٤٨، في القدس الشرقية، في الضفّة، في غزّة، في الشتات، في الخليج، وفي الولايات المتحدة: اعلموا أنّ هناك أصواتًا صغيرة، لكنها تتنامى، تبحث عن شراكة متساوية بين اليهود والفلسطينيين. سواء في العمل الميداني، أو في رؤية سياسية مشتركة. اعلموا أنّ هذا الخيار موجود.

سأعطي مثالًا من جامعتي: هناك مجموعة ليست صغيرة من تضامن عربي-يهودي. صحيح أنّ العكس موجود أيضًا وهناك مؤيّدون واضحون للإبادة، ممن يوفّرون المعرفة الأكاديمية لتبريرها. وهناك اللامبالون، والغالبية غير مبالية بالمعاناة وبالجرائم، ولذلك تدعم عمليًا ما تفعله الحكومة.

لكن إلى جانب ذلك، هناك مجموعة تضامن حقيقية وليست صغيرة. لستُ الوحيد الذي يصرخ. هناك زملاء: الدكتور لي مردخاي (Lee Mordechai) يدير مشروعًا ضخمًا لتوثيق الإبادة وهو منشور

«اليمين لديه جواب واضح: التوجّه نحو "حلّ نهائي": التخلّص من الفلسطينيين. طرد أكبر عدد ممكن، أو إدخال من يبقون في بنية سياسية لا يستطيعون فيها حتى المقاومة، وإبقاؤهم تحت قمع عنيف. هذه هي "خطة الحسم" التي يطرحها سموتريتش: لن تقوم دولة يهودية إلا إذا قبل الفلسطينيون بنظام الأبارتهايد. وإن لم يقبلوا؛ فالمصير هو الترحيل أو القتل».

على الإنترنت، وليئات كوزما (Liat Kozma) كتبت معه وبشكل منفرد العديد من المقالات حول تدمير النظام الصحي في غزّة، وهناك آخرون أيضًا.

في جامعات أخرى تغيّر الوضع كثيرًا. هناك سلسلة المحاضرات بعنوان "عيون على غزّة" التي تعرض يوميًا توثيقًا وتحليلًا للإبادة الجارية في غزّة. هذا ليس عددًا كبيرًا، لكنه موجود.

يمكن النظر في موقع مقالات +٩٧٢ بالإنجليزية، وموقع "مكالمة محلية" بالعبرية، وحتى في صحيفة هآرتس من خلال مقالات نير حسون (Nir Hasson) وهاجر شِزاف (Hagar Shezaf)، لترى أنّ هذه الأصوات تتزايد. مرة أخرى، نحن أقلية، لكنني أعتقد أنّها ليست أقلية تافهة.

هذا يتجلّى أيضًا في الشارع. ففي المظاهرة الأخيرة في ميدان هبيما شارك آلاف من اليهود والعرب، وهتفوا معًا ضدّ الإبادة. من نظّم هذه المظاهرة؟ ليست المجموعات اليهودية، بل اللجنة القطرية العليا لشؤون الجماهير العربية؛ وانضمّ إليهم آلاف اليهود. إذن، هناك شيء موجود بالفعل. ونحن بحاجة إلى جهد هائل. أوّلًا، إيقاف الإبادة، إيقاف التطهير العرقي، إيقاف انحدار الفظائع، إدخال الغذاء، والبدء في إعادة الإعمار. هذه هي المعارك التي يجب خوضها. وإيقاف العنف والتطهير العرقي ضد الفلسطينيين في الضفّة. وحتى في هذا المجال هناك جمهور يهودي يريد النضال من أجل هذه القضايا. صحيح أنه أقلية، لكنه موجود، وبرأيي فإن النضال المشترك هو الأكثر فاعلية، على الأقل داخل إسرائيل.

من المؤكّد أنّ هذا ليس الوقت المناسب لقول ذلك بينما نحن في قلب إبادة جماعية تتوسع باستمرار، لكن في مرحلة ما سنحتاج إلى التفكير في المسؤولية الملقاة على عاتق اليهود والفلسطينيين معًا لصناعة مستقبل مشترك. مستقبل لا يقوم على أي نوع من التماثُل، لأنّ التماثل غير موجود. نحن، اليهود، نقوم بالإبادة الجماعية، والفلسطينيون هم الضحايا. وحتى إذا أخذنا في الاعتبار أحداث السابع من أكتوبر، فالوضع غير متماثل. نحن من ينفّذ التطهير العرقي، ويمارس تدمير البيوت، والتهجير، والقتل، ويحوّل الحياة في القدس الشرقية إلى جحيم، ويفكّك المجتمع الفلسطيني داخل مناطق ١٩٤٨. لا يوجد اليوم أي تماثل، لا في المسؤولية، ولا في حجم الجرائم، ولا في موازين القوى. مع ذلك، داخل هذا اللاتماثل تبقى هناك مسؤولية تقع على الطرفين: مسؤولية محاولة وقف الفظائع، ومنع توسّعها بهذه الأبعاد إلى الضفة الغربية، ومحاولة إيقاف هذه الحكومة الفاشية والرهيبة داخل إسرائيل نفسها. ليست مسؤولية متساوية، لكنها مسؤولية مشتركة.

تاريخيًا وسياسيًا، علينا جميعًا أن نفكّر كيف نخطو خطوة إضافية واحدة، حتى لو خطوة، لمنع الفظائع التي يرتكبها الإسرائيليون اليوم بحقّ الفلسطينيين.

أريد أن أختم بالقول: نحن لسنا الضحايا. الضحايا الحقيقيون هم الفلسطينيون في غزّة، وكذلك في الضفة الغربية. ومشكلتنا الآن ليست "الانشغال بالمستقبل"، بل قبل كل شيء: إيقاف الفظائع. البحث عن شراكات قبل الحديث عن حلول تاريخية بعيدة: شراكات في المقاومة، وفي الإدانة، وفي تسمية الأمور باسمها: إبادة جماعية. شراكات من أجل إسقاط حكومة الإبادة هذه.

البرنامج المشترك الفوري واضح برأيي:

الدعوة إلى فرض عقوبات، والدعوة إلى ضغط دولي على إسرائيل، والدعوة إلى كل من يستطيع إيقاف هذه الآلة. وذلك من أجل المختطفين، ومن أجل أن نبدأ نحن أيضًا في التعافي من الحرب، ولكن بكل تأكيد من أجل وقف العنف الوحشي ضد الفلسطينيين في غزّة والضفة.

وكما قلت، أنا أفهم كل فلسطيني يقول إنه غير مستعدّ أصلًا لسماع كلمة "شراكة" بين اليهود والفلسطينيين، ولا أحاول أن أعطي دروسًا أخلاقية لأحد. لكن برأيي المتواضع، رغم كل الصعوبة، هذا بالضبط ما يتطلّبه الواقع الآن.

أعتقد أنّ التاريخ العالمي قد تغيّر. المنظومة القانونية الدولية تتزعزع وربما حتى تنهار. والتاريخ الفلسطيني يتغيّر، وكذلك التاريخ اليهودي، وأقولها بأشدّ الكلمات، لقد تلوّث. لقد تلطّخ. ومن الآن فصاعدًا سنحتاج إلى النظر إلى تاريخنا، إلى ثقافتنا، إلى أفكارنا ومساءلة أنفسنا: كيف وصلنا إلى هذا الوضع؟

أجيال من اليهود والإسرائيليين سيُطالَبون يومًا ما بأن يقدّموا حسابًا عمّا جرى في غزّة وفلسطين. ليس فقط عمّا حدث عام ١٩٤٨، بل أيضًا عمّا جرى في ٢٠٢٣، و٢٠٢٤، و٢٠٢٥؛ ومن يعلم متى سينتهي هذا كلّه.

نحن لا نعرف متى سيتوقّف، ولا نعرف ما ستكون نتائجه. ما يحدث الآن غيّر التاريخ اليهودي والإسرائيلي إلى الأبد، بطريقة لا أعرف إن كنّا سنتمكّن يومًا ما من التعافي منها، أو كيف سنفهمها لاحقًا. وبالنسبة لي، كيهودي، ومن داخل هوية يهودية نابعة من هذا التقليد، فهذا يمزّق قلبي.

لكنني أعود وأؤكّد: هذه ليست المشكلة العاجلة ولا الأساسية الآن. المشكلة الآن هي إيقاف الإبادة الجماعية. إدخال الأدوية، فتح غرف العمليات، توفير الخبز. وبعدها: كيفية إعادة إعمار غزّة. هذا ما يجب فعله الآن. هذه هي مسؤوليتنا نحن اليهود أن نناضل من أجله بكل قوّتنا. وأكرر أنّني أعتقد أنّ هذا النضال يكون أكثر فعالية، على المدى القصير والطويل، عندما يتمّ في إطار شراكة.

نحن نعيش لحظة تأسيسية للإسرائيليين وللفلسطينيين. كل شيء تغيّر. النظام الدولي تبدّل. القانون الدولي تمّ تدميره. المحكمة الجنائية الدولية نفسها تتعرض للعقوبات، ولا نعرف إن كانت قادرة أصلًا على العمل. الجميع يخاف من إسرائيل ومن الولايات المتحدة. وألمانيا (التي ارتكبت الإبادة ضد اليهود) دعمت وتواصل في الواقع دعم الإبادة التي تنفّذها إسرائيل اليوم. الوعي كلّه يتغيّر، عالميًا، فلسطينيًا، يهوديًا، وإسرائيليًا. وليس نحو الأفضل.

الهوامش

١ أجريت المقابلة بتاريخ ١٢ تموز ٢٠٢٥، قبل وقف إطلاق النار.

٢ غيتو وارسو هو الحي اليهودي المغلق الذي أنشأه النازيون في بولندا المحتلة، وشهد انتفاضة ١٩٤٣. في الثقافة الإسرائيلية تحوّل إلى أسطورة تأسيسية تمجّد العنف المقاوم، وتُستخدم لتبرير منطق القوة، وإقصاء التجربة الفلسطينية عبر تعميم الضحية وتحويلها إلى شرعية سياسية.

٣ ؛ Daniel Blatman and Amos Goldberg, “There’s No Auschwitz in Gaza. But It’s Still Genocide,” Haaretz, January 30, 2025. صبحي حديدي، "خطاب الهولوكوست في زمن الإبادة: شهادة إسرائيلية"، القدس العربي، ٣١ تموز ٢٠٢٥.

٤ الإبادة الجماعية تعني أي فعل أو مجموعة أفعال تُرتكب بقصد تدمير جماعة قومية أو إثنية أو عرقية أو دينية، كليًا أو جزئيًا، بصفتها هذه، ويشمل ذلك القتل المتعمد لأفراد الجماعة، أو إلحاق أذى جسدي أو نفسي جسيم بهم، أو فرض ظروف معيشية تؤدي إلى هلاكهم الفعلي، أو اتخاذ تدابير تستهدف منع الإنجاب داخل الجماعة، أو نقل أطفالها قسرًا إلى جماعة أخرى، سواء تم ذلك عبر العنف المباشر أو السياسات المنظمة والممنهجة.